بسم الله الرحمن الرحيم

كَيْفَ نَسْتَقْبِلُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ؟ ٢٣ رَمَضَانَ ١٤٤٤هـ

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ، وَأَتَمِّ الْمِنَحِ، وَأَجْزَلِ الْعَطَايَا: أَنْ يُوَفِّقَ اللهُ الْعَبْدَ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ الْأَلْبَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ»، فَقِيلَ: كَيْفَ يَسْتَعْمِلُهُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «يُوَفِّقُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ قَبْلَ الْمَوْتِ».

عِبَادَ اللهِ: هَا هُوَ شَهْرُ رَمَضَانَ - شَهْرُ تَصْفِيدِ الشَّيَاطِينِ، شَهْرُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ، شَهْرُ الْمَغْفِرَةِ وَالْعِتْقِ مِنَ النِّيرَانِ - يَتَهَيَّأُ لِلرَّحِيلِ وَالزَّوَالِ، تَصَرَّمَتْ سَاعَاتُهُ، وَانْقَضَتْ لَيَالِيهِ وَأَيَّامُهُ، شَاهِدَةً عَلَيْكُمْ بِمَا عَمِلْتُمْ، وَحَافِظَةً لِمَا أَوْدَعْتُمْ، تُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً﴾، فَيُنَادِي رَبُّكُمْ سُبْحَانَهُ، كَمَا أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَىٰ عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَئِنْ مَضَىٰ مِنْ شَهْرِكُمُ الْكَثِيرُ، فَقَدْ بَقِيَ فِيهِ بَقِيَّةٌ، بَقِيَتْ مِنْ شَهْرِكُمْ بَعْضُ لَيَالِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ، وَالَّتِي هِيَ أَفْضَلُ لَيَالِي الْعُمُرِ، وَالَّتِي كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَحْتَفِي بِهَا أَيَّمَا احْتِفَاءٍ، يَزِيدُ فِيهَا مِنَ الْعِبَادَةِ مَا لَا يَزِيدُ فِي غَيْرِهَا مِنْ أَيَّامٍ وَلَيَالِي الشَّهْرِ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَجْتَهِدُ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مَا لَا يَجْتَهِدُ فِي غَيْرِهِ. وَأَخْرَجَ أَيْضًا عَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْعَشْرُ أَحْيَا اللَّيْلَ، وَأَيْقَظَ أَهْلَهُ، وَجَدَّ، وَشَدَّ الْمِئْزَرَ.

وَمِنْ عَلَامَاتِ تَوْفِيقِ اللهِ لِلْعَبْدِ: أَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ تَعَالَىٰ الْمُسَارَعَةَ وَالْمُسَابَقَةَ وَالْمُبَادَرَةَ إِلَىٰ الْخَيْرَاتِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، وَقَالَ ﷻ: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ

وَرُسُلِهِ﴾، وَضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْوَعَ الْأَمْثِلَةِ فِي الْمُسَارَعَةِ وَالْمُبَادَرَةِ إِلَىٰ الْخَيْرِ، وَعَدَمِ تَسْوِيفِ الْمُسَابَقَةِ إِلَيْهِ، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: صَلَّيْتُ وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ الْعَصْرَ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَامَ مُسْرِعًا، فَتَخَطَّىٰ رِقَابَ النَّاسِ إِلَىٰ بَعْضِ حُجَرِ نِسَائِهِ، فَفَزِعَ النَّاسُ مِنْ سُرْعَتِهِ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَرَأَىٰ أَنَّهُمْ عَجِبُوا مِنْ سُرْعَتِهِ، فَقَالَ: «ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ تِبْرٍ عِنْدَنَا، فَكَرِهْتُ أَنْ يَحْبِسَنِي، فَأَمَرْتُ بِقِسْمَتِهِ». فَانْظُرْ إِلَىٰ مُسَارَعَتِهِ ﷺ بِالْإِنْفَاقِ ، وَإِيصَالِ الْبِرِّ لِمُسْتَحِقِّيهِ.

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ أَصْحَابَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَىٰ الْمُبَادَرَةِ بِالْخَيْرَاتِ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا». وَالْمَعْنَىٰ: سَابِقُوا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَبَادِرُوا فِيهَا قَبْلَ أَنْ تَشْغَلَكُمُ الْفِتَنُ؛ فَإِنَّهَا إِذَا وَقَعَتْ شَغَلَتْكُمْ عَنْ كُلِّ عَمَلٍ صَالِحٍ.

وَمِنْ عَلَامَاتِ تَوْفِيقِ اللهِ لِلْعَبْدِ: تَوْفِيقُهُ لَهُ بِاسْتِغْلَالِ مَوَاسِمِ الطَّاعَاتِ الَّتِي هِيَ أَيَّامُ خَيْرٍ وَبَرَكَةٍ، وَمُنَاسَبَاتٌ عَظِيمَةٌ يَفْتَحُ اللهُ لِعِبَادِهِ فِيهَا سُبُلَ الطَّاعَةِ، وَيُيَسِّرُ عَلَيْهِمْ فِيهَا عَمَلَ الصَّالِحَاتِ. وَمِنْ ذِلِكَ : شَهْرُ رَمَضَانَ، لَاسِيَّمَا الْعَشْرُ الْأَوَاخِرُ مِنْهُ. فَالْعَاقِلُ مَنِ اسْتَغَلَّ هَذِهِ الْمَوَاسِمَ، وَجَعَلَهَا أَيَّامَ طَاعَةٍ وَإِنَابَةٍ، وَادَّخَرَهَا لِنَفْسِهِ عِنْدَ رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ، وَاسْتَعَانَ بِهَا عَلَىٰ مَا بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ وَأَيَّامِهِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾.

فَكَمْ كَانَ بَيْنَنَا مِنْ أَقْوَامٍ عَاشُوا مَعَنَا فِي سَنَوَاتٍ مَاضِيَةٍ، شَارَكُونَا صَوْمَنَا، وَجَالَسُونَا عَلَىٰ مَوَائِدِ فِطْرِنَا، هُمُ الْيَوْمَ تَحْتَ التُّرَابِ يَأْمُلُونَ رَحْمَةَ الرَّبِّ التَّوَّابِ الْوَهَّابِ، وَيَرْجُونَ عَفْوَهُ وَغُفْرَانَهُ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تَفَرَّدَ وَحْدَهُ بِالْخَلْقِ وَالْإِيجَادِ، وَهُوَ ﷻ الْمُتَفَرِّدُ وَحْدَهُ بِالِاجْتِبَاءِ وَالِاصْطِفَاءِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾، فَاخْتَارَ مِنَ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ

وَالْأَشْخَاصِ فَخَصَّهُمْ ﷻ بِوَافِرِ فَضْلِهِ وَجَزِيلِ مَنِّهِ، وَعَظِيمِ إِنْعَامِهِ وَإِكْرَامِهِ، عَنْ عِلْمٍ كَامِلٍ، وَحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ. وَمِمَّا خَصَّ اللهُ جَلَّ وَعَلَا مِنَ الْأَوْقَاتِ شَهْرُ رَمَضَانَ، حَيْثُ فَضَّلَهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ سَائِرِ الشُّهُورِ، وَخَصَّ اللَّيَالِيَ الْعَشْرَ الْأَخِيرَةَ مِنْهُ؛ حَيْثُ فَضَّلَهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَلَىٰ سَائِرِ اللَّيَالِي، وَخَصَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ؛ حَيْثُ جَعَلَهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ، فَاخْتَصَّهَا بِهَذَا الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، وَالْإِنْعَامِ الْوَافِرِ؛ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَظِيمِ مَكَانَتِهَا، وَقَدْ فَخَّمَ ﷻ أَمْرَهَا، وَأَعْلَا شَأْنَهَا، وَرَفَعَ قَدْرَهَا، فَأَنْزَلَ فِيهَا وَحْيَهُ الْكَرِيمَ، وَذِكْرَهُ الْحَكِيمَ، وَكَلَامَهُ الْعَظِيمَ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

عِبَادَ اللهِ: لَقَدْ حَثَّ نَبِيُّنَا ﷺ عَلَىٰ تَحَرِّي لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَقِيَامِهَا، أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ»، وَأَخْرَجَ الشَّيْخَانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ، وَمَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ».

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: لَيَالِيكُمْ هَذِهِ أَعْظَمُ اللَّيَالِي فَضْلًا، وَأَكْثَرُهَا أَجْرًا، تَصْفُو فِيهَا لَذِيذُ الْمُنَاجَاةِ، وَتُسْكَبُ فِيهَا غَزِيرُ الْعَبَرَاتِ، كَمْ لِلَّهِ فِيهَا مِنْ عَتِيقٍ مِنَ النَّارِ! وَكَمْ فِيهَا مِنْ مُنْقَطِعٍ قَدْ وَصَلَتْهُ تَوْبَتُهُ! الْمَغْبُونُ مَنِ انْصَرَفَ عَنْ طَاعَةِ اللهِ، وَالْمَحْرُومُ مَنْ حُرِمَ رَحْمَةَ اللهِ، وَالْمَأْسُوفُ عَلَيْهِ مَنْ فَاتَتْهُ فُرَصُ الشَّهْرِ، وَفَرَّطَ فِي فَضْلِ الْعَشْرِ، وَخَابَ رَجَاؤُهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، مَغْبُونٌ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ يَدَيْهِ بِدَعْوَةٍ، وَلَمْ تَذْرِفْ عَيْنُهُ بِدَمْعَةٍ، وَلَمْ يَخْشَعْ قَلْبُهُ لِلَّهِ لَحْظَةً، وَيْحَهُ ثُمَّ وَيْحَهُ أَدْرَكَ الشَّهْرَ! وَلَمْ يَحْظَ بِمَغْفِرَةٍ؟! وَلَمْ يَنَلْ رَحْمَةً؟!

يَا بُؤْسَهُ! وَلَمْ تُقَلْ لَهُ عَثْرَةٌ؟!، قَطَعَ شَهْرَهُ فِي الْبَطَالَةِ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِلصَّلَاحِ عِنْدَهُ مَوْضِعٌ، وَلَا لِحُبِّ الْخَيْرِ فِي قَلْبِهِ مَنْزَعٌ. طَالَ رُقَادُهُ حِينَ قَامَ النَّاسُ، هَذَا وَاللهِ غَايَةُ الْإِفْلَاسِ، عَصَىٰ رَبَّ الْعَالَمِينَ، وَاتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، أُمِرَ بِالصَّلَاةِ فَضَيَّعَهَا، وَوَجَبَتْ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ فَانْتَقَصَهَا وَمَنَعَهَا، دَعَتْهُ دَوَاعِي الْخَيْرِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا، مَسْؤُولِيَّاتُهُ قَصَّرَ فِيهَا، وَقَصَّرَ فِيمَنْ تَحْتَ يَدَيْهِ مِنْ بَنِينَ وَبَنَاتٍ، يُفَرِّطُ فِي مَسْؤُولِيَّاتِهِ وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ مِنْ سُنَّةِ نَبِيِّنَا ﷺ أَنَّهُ يُوقِظُ أَهْلَهُ، أَمَّا هَذَا فَقَدِ اشْتَغَلَ بِالْمُلْهِيَاتِ، وَقَطَعَ أَوْقَاتَهُ فِي الْجَلَبَةِ فِي الْأَسْوَاقِ. أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْعَلَّامَةُ أَحْمَدُ شَاكِرٍ رَحِمَهُ اللهُ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ».

عِبَادَ اللهِ: اتَّقُوا اللهَ تَعَالَىٰ، وَاعْلَمُوا أَنَّ عُمْرَ الإِنْسَانِ لَهُ أَجَلٌ مُحَدَّدٌ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ، لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ سُبْحَانَهُ، وَمِنْ سَعَادَةِ الْإِنْسَانِ طُولُ الْعُمْرِ وَحُسْنُ الْعَمَلِ، وَمِنْ أَمَارَاتِ الشَّقَاءِ وَالْخُسْرَانِ أَنْ يَطُولَ الْعُمْرُ وَيَزْدَادَ نَهَمُ الْإِنْسَانِ لِلشَّهَوَاتِ، مَعَ انْغِمَاسِهِ فِي الْمَعَاصِي، أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَعْذَرَ اللهُ إِلَىٰ امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ، حَتَّىٰ بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً» أَيْ: أَنَّ اللهَ ﷻ إِذَا عَمَّرَ الْإِنْسَانَ حَتَّىٰ بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً فَقَدْ أَقَامَ عَلَيْهِ الْحُجَّةَ، وَنَفَىٰ عَنْهُ الْعُذْرَ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَعْمَارَ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا بَيْنَ السِّتِّينَ وَالسَّبْعِينَ، وَقَلِيلٌ مَنْ يَتَجَاوَزُ ذَلِكَ؛ فَاتَّقُوا اللهَ - عِبَادَ اللهِ - وَاسْتَقْبِلُوا شَهْرَكُمْ بِالْمُبَادَرَةِ بِطَاعَةِ رَبِّكُمْ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ، وَاحْذَرُوا طُولَ الْأَمَلِ الَّذِي يَجُرُّ إِلَىٰ التَّسْوِيفِ وَالتَّقْصِيرِ بِالْعَمَلِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: احْذَرُوا الْعُجْبَ بِطَاعَتِكُمْ، قَالَ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ فِي «مَدَارِجِ السَّالِكِينَ»: فَالرِّضَا بِالطَّاعَةِ مِنْ رَعُونَاتِ النَّفْسِ وَحَمَاقَتِهَا. وَأَرْبَابُ الْعَزَائِمِ وَالْبَصَائِرِ أَشَدُّ مَا يَكُونُونَ اسْتِغْفَارًا عُقَيْبَ الطَّاعَاتِ، لِشُهُودِهِمْ تَقْصِيرَهُمْ فِيهَا، وَتَرْكَ الْقِيَامِ لِلَّهِ بِهَا كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكِبْرِيَائِهِ، وَأَنَّهُ لَوْلَا الْأَمْرُ لَمَا أَقْدَمَ أَحَدُهُمْ عَلَىٰ مِثْلِ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةِ، وَلَا رَضِيَهَا لِسَيِّدِهِ.